الرواية والفضاء الروائي

محمد عز الدين التازي

مداخلة مقدمة لندوة الرواية العربية

رابطة أدباء الجنوب

أغادير من 27 إلى 30 ماي 2011

_ 1 _

الفضاء في الرواية، مكون من بين مكوناتها الأخرى، أي أنه يشكل بنية من بين بنيات الحكي. ومع ذلك، فهو يستحق بجدارة أن يكون "عنصرا مهيمنا" في العمل الروائي، بمعنى أن كثيرا من الروايات العالمية والعربية تستحق أن يطلق عليها بعض النقاد "رواية الفضاء"، في مقابل روايات أخرى تهيمن عليها عناصر أخرى، من بين مكوناتها التي ترتبط ببنيات الحكي، كمكون السرد وطرائقه في ممارسة اللعبة السردية، ومكون الشخصيات وتفاعلاتها واحترابها وظهورها كقوى فاعلة، ومكون الزمن باعتباره تداخلا بين أزمنة يهيمن عليها الزمن المطلق.

كل ذلك لا يعني أن الرواية التي تتميز باشتغالها على الفضاء الروائي لا تستحضر هذه المكونات ولا تشتغل على بنائها روائيا، بل إن الرواية التي يهيمن عليها حضور عنصر الفضاء تمارس كل هذه المستويات التي تبني عالم الرواية وتشكل في صورته في الواقع أو فيما فوق الواقع، من خلال تشخيص العوالم التي يحفل بها الفضاء الروائي، وهي عوالم لا يمكن أن توجد إلا من خلاله، وفيه، مما يمنحها خصوصيتها المحلية، وحضورها الجمالي والدلالي، وهو ما يعني أن النص الروائي يقيم اعتبارها خاصا لمكون الفضاء (فضاء مفتوح في مقابل فضاء مغلق) / (فضاء يحمل إشارته الواقعية في مقابل إحالته

على رموز الأمكنة ومعانيها) / (فضاء متوتر، ينفتح على الفضاءات الأخرى) / (يتسع للواقع كما يتسع للحلم) / (فضاء للدهشة والكشف والاكتشاف).

لا تسعف كل هذه التوصيفات في تشييد صورة مكتملة للفضاء سواء في الروايات ذات المنحى الواقعي التي كونت للفضاء الواقعي صورة أدبية واقعية أو في الروايات ذات المنحى التجريبي المنفلت من إسار الواقعية. ذلك أن المحصلة القرائية للنصوص الروائية العالمية والعربية تسعف من خلال تكوين مشهد لتجليات الفضاء الروائي متعدد الأوجه والتجليات، مما يعني أن كل التنظيرات التي اشتغلت نقديا على الفضاء الروائي تبقى محصورة في دائرة ضيقة ليست هي التي يتسع لها مجال اشتغال الروائيين عل فضاءات رواياتهم، وهي قضية تخص النقد ولا تخص الإبداع الروائي.

_ 2 _

يعتبر الفضاء في الرواية بمثابة الديكور في المسرح، لكونه يُبَوِّئُ الأحداث في الأمكنة وما تعيشه من أزمنة.

إن فضاء الرواية هو ما يجعل الأحداث تقع في العديد من الأمكنة التي تنتظم داخل الفضاء الروائي، لذا يجب التمييز بين

"الفضاء" و"المكان"، فالمكان في الرواية هو وحدة صغرى ومن مجموع الأماكن التي تحضر في الرواية يتشكل فضاؤها.

وإذا كان المكان الروائي يحمل دلالته الدينية أو الاجتماعية أو التاريخية، فإن الرواية وهي تشتغل على بناء فضائها، تسعى إلى إضفاء معنى من المعاني عليه، يكسبه دلالته الواقعية أو الرمزية أو التاريخية.

تنشأ العلاقة بين المكان الروائي وبين المرجع الذي يحيل عليه بشتى أنواع هذه العلاقة، من الاستيحاء إلى الترميز إلى التدمير وإعادة البناء . فالرواية مهما بلغت درجة انتمائها إلى الواقعية، لا تسعى إلى استنساخ المكان، بل تسعى إلى تصويره عن طريق التقاط تفاصيله الموحية بوجوده في الواقع، أو تفكيك تلك التفاصيل وإعادة تركيبها، أو انتقاء ما هو دال منها على معنى معين، وبهذا الاشتغال يصبح المكان في الرواية ذا طبيعة إشكالية عندما يتم النظر إليه من مرجعيته الواقعية.

عبر تشكل تاريخ الجنس الروائي، ارتبطت الرواية في علاقتها بالفضاء بتقاطع كبير بين خطين: أحدهما عمودي يحدد العلاقة بين السماء والأرض. السماء باعتبارها مجالا للقوى الغيبية والأرض باعتبارها مجالا لعيش البشر الذين يتوجهون بنظراتهم نحو السماء. والثاني أفقي يحدد العلاقة بين البشر وما تنطوي عليه من خير وشر أو صراع بين الطبقات. (جوليا كريستيفا في كتابها: النص الروائي)

_ 3 _

ارتبطت الرواية بالمدينة كفضاء اجتماعي تتحرك فيه القوى المؤثرة على توجهات المجتمع وتطلعاته وأوهامه وأحلامه. لكن هذه العلاقة بين الرواية والمدينة، هي الأخرى تظل مشدودة إلى طبيعتها الإشكالية، من حيث ما تحمله مستويات التخييل الروائي عن المدينة من أوجه بلاغية ودلالات ومعان تختلف بحسب معيش الروائي ونظرته (أو نظراته) إلى المدينة، وهو ما ينتهي إلى القول بأن لكل روائي مدينته التي يجعلها مدار تجربته في الكتابة، وهي نفس المدينة التي يشتغل عليها روائي آخر، بوعي دلالي وجمالي مختلف، مما يجعل للمدينة حضورا متعدد المعاني والدلالات. إن إسكندرية لورانس داريل في "رباعية الإسكندرية"، ليست هي الإسكندرية في "بنات الإسكندرية" لإدوار الخراط، وليست هي الإسكندرية في "لا أحد ينام في الإسكندرية" لإبراهيم عبد المجيد، كما أن فاسا هي فاس المتعددة في روايات الطاهر بنجلون، عبد اللطيف اللعبي، عبد الكريم غلاب، محمد برادة، ومحمد عز الدين التازي، وكما أن مراكش إلياس كانيتي ليست هي مراكش خوان غويتيسولو، وكما أن طنجة متعددة في كتابات الأجانب الذين استوحوا عوالمها وفي كتابات الروائيين المغاربة الذين قاربوا ملمحا من ملامح حضورها أو مظهرا من مظاهر

وجودها. لا تعني هذه الملاحظة، سوى أن الروائي لا يستنسخ واقع المدينة، وإنما هو يسعى إلى تشكيله من خلال رؤيته الخاصة، تشكيلا أدبيا يقوم على اللغة والتخييل.

تخييل المدينة في الرواية، يقوم على توصيف مجتمعها وحركيته وتحولاته، بمعنى أنها تقيم صورة روائية للمجتمع، من منظورات شخصياتها، عندما يتعلق الأمر بتعدد الأصوات السردية وتعدد اللغات والخطابات.

عندما تصبح المدينة في الفضاء الروائي مرآة مهشمة لواقع يتجاوز الواقع إلى ذاكرة المدينة وتاريخها المنسي وبياضاتها وجعلها موضوعا لموضوعات آخرى، كتأنيثها والتغزل فيها أو رميها بالعقم ووصفها بأنها "مباءة"، أو إيقاظ ذاكرتها الخصبة وتحريك سواكنها ومواجعها والإصغاء إلى صمتها أو تحولها إلى خراب أو فقدان.

ربما، بهذا أو بذاك، أو بشيء آخر، بَوَّأَ الكثير من الروائيين العالميين والعرب أحداث رواياتهم داخل المدينة، باعتبارها مجالا حيويا للتحولات التاريخية، واختلالات القيم، والصعود والانهيار، هذا إذا كان للمدينة حراكها في هذا المجال، وكانت لها موحياتها التي توحي بالخصوصية المحلية التي تتشكل من التاريخ والعمران والعادات والتقاليد. مع أن كثيرا من المدن التي تفتقد هذه الخصوصية، قد تكون لها موحيات أخرى هي التي يتفاعل معها متخيل الرواية. لا يتعلق

الأمر بأصالة المدن أو معاصرتها، بل يتعلق بما يكون الروائي قد أَلْبَسَ فضاءاتها وأمكنها تجارب ذات عمق إنساني لها طابعها الاجتماعي ومعيشها الخاص.

_ 4 _

اشتغال الكتابة الروائية على فضاء الرواية يعني منحى في كتابة الرواية، يتشبع باستيحاء الفضاء الروائي وما يتكون وينتظم من خلاله من أمكنة. ولعل مسألة المرجع الواقعي وحضوره في الفضاء الروائي تعود بنا إلى مسألة العلاقة بين الصورة والتمثال، مسألة الواقع واللاواقع، ومسألة الواقع وتخييل الواقع، وما بين هذه المسائل من مسافات جمالية تقيم الفوارق والحدود بين الواقع كما هو وبين الواقع كما هو في متخيل الإبداع، الذي من مهامه تغريب الواقع من أجل أن يحضر جماليا في الإبداع، وهو مع هذا التغريب يحضر بصورة من صوره، أو بتجل من تجلياته، منظورا إليه من حيث اشتغال الكتابة الروائية عليه، وهو الاشتغال الذي يتركز على تدميره وإعادة تشكيله أدبيا، والاقتراب من مناحيه وأبهائه التي يلتقي فيها اليومي بالمحلوم به بالعجيب والغريب وبالتاريخي والأسطوري.

بهذا المعنى تصبح الكتابة الروائية بالفضاء متسعا لتوسيع عوالم الواقع، وصورا متعددة لوجود ممكن عن واقع ممكن.

_ 5 _

الصَّوْغُ الروائي للفضاء هو ما يُعَدِّدُ من مظاهر وجوده، وأبعاده الدلالية والجمالية. وبالنسبة لتجربتي في كتابة الرواية، وهي التجربة التي استغرقت أربعا وثلاثين عاما، نشرت خلالها اثنين وعشرين رواية، فقد كان حضور الفضاء الروائي يشكل خاصية أدبية كبرى في كل تلك الروايات. بدأ هذا الانشغال بالفضاء الروائي مع روايتي الأولى "أبراج المدينة" التي نشرتها في بغداد سنة 1978، واستمر حتى روايتي الأخيرة من حيث النشر "وهج الليل" 2011، مرورا بباقي الأعمال. حضرت فاس بأوجهها المتعددة في: "أبراج المدينة"، "المباءة"، "خَفْقُ أجنحة"، "الخفافيش"، "زهرة الآس"، "دم الوعول"، و"حكاية غراب"، حيث تحضر فاس كفضاء مركزي، وفي روايتين أخريين هما: "مهاوي الحلم"، "شهوة تحت الرماد"، كفضاء يتقاطع في الأولى مع فضائي الرباط وطنجة وفي الثانية مع فضاء مرتيل. أما أصيلة فقد حضرت في روايتي الثانية من حيث الصدور: "رحيل البحر"، كما حضر طنجة في "مغارات"، "ضحكة زرقاء"، "امرأة من ماء"، و"أبنية الفراغ". وتحضر مدينة مرتيل في "كائنات محتملة"، و"وهج الليل" كفضاء جوهري، بينما يتقاطع حضورها مع إشبيلية في "الحديقة الأندلسية"، ومع فاس في "شهوة تحت الرماد". أما "أيام الرماد" فقد

اشتغلت على فضاء البادية المغربية، كما اشتغلت "فوق القبور تحت القمر" على فضاء المقبرة اليهودية، و"أيها الرائي" على فضاء الأدغال الإفريقية وهو يتقاطع مع فضاء المدينة الأوربية، واشتغلت "بطن الحوت" على عوالم الممكن في فضاء تحت أرضي حيث يعيش البطل تجربة أشبه بتجربة البعث.

يعني ذلك، انفتاح تجربتي الروائية على تعدد الفضاءات وما تحتويه من أمكنة تحيل على وجودها في واقع ممكن، يكون له أحيانا، طابعه الواقعي، وأحيانا أخرى طابعه السحري والأسطوري.

يعني الفضاء في الرواية بالنسبة لي بعدا أنطولوجيا يتبدى فيه الفضاء وهو قيد التحول، وهو تحول في اتجاه الخراب أو تعمير ذلك الخراب بما يلغي وجوده السابق، بحمولاته التاريخية والإنسانية، وفي كلا الحالتين، يكون الفضاء الروائي محفزا على كتابة روائية تستعيد ذاكرته وأنماط العيش فيه واستحضار بعض الشخصيات (أو الأشخاص المعروفين) الذين مروا منه فتركوا وقع أقدامهم على الطريق.

بهذا المعنى أتصور أن اشتغال الرواية على الفضاء الروائي، يكتسب معنى خاصا في إعادة الذاكرة إلى بعض الأمكنة، وجعلها تعيش في متخيل الرواية كما كانت تعيش في الواقع.

وبهذا المعنى أيضا، أتصور أن الرواية في علاقتها بالأمكنة، وما يتناسل عنها من علاقات، تساعد على استحضار المنسي لجعله

متذكرا، كما أنها تفتح أفقا جديدا لجمالية الفضاء، ولمعانيه ورموزه ودلالاته، ولتجلياته بأكثر من تجل، واستحضاره بأكثر من حضور.